

العوامل الذاتية والموضوعية في نشأة النحو العربي

"عوداً على بدء"

الدكتور: وليد السراقبي

كلية الآداب - جامعة حماة - سورية

يحيط الغموض والضبابية بأوليات نشأة أغلب، العلوم والنظريات، ولا سيما في العلوم الإنسانية، وتتجاذبها شخصيات متعددة تنسب إليها الأوليّة. ونحونا العربي واحد من فروع العوم الإنسانية عامة والعربية خاصة الذي يحيط به مثل هذه الغموض، وينسب وضعه إلى غير ما واحد من الشخصيات التاريخية أو العلمية التي كان لها حضورها عبر التاريخ. وفي سبيل استجلاء الحقيقة، قَدَر الطّاقة والجهد، نحاول في هذه المقدّمة التاريخية في نشأة نحونا العربي أن نستنطق النصوص التي أشار أصحابها إلى هذه الشخصية أو تلك، ونسبوا إليها فضل وضع هذا العلم، مراعين في ذلك المواكبة التاريخية بدءاً من أقدم نص وردت فيه تلك الإشارة، مقسّمين ذلك إلى حقبة تاريخية هي: 1- القرن الهجري الثاني. 2- القرن الهجري الثالث. 3- القرن الهجري الرابع - السابع. 4- ما بعد القرن الهجري السابع. 5- المحدثون. ثم نتلّث عند تفصيل الأسباب الموضوعية والذاتية لنشأة النحو العربي.

الكلمات المفتاحية: الموضوعية؛ الذاتية؛ النحو؛ النشأة؛ العامل؛ النص؛ الغموض؛ النظريات؛ القواعد؛ البصيرة؛ الذائقة.

The Subjective and Objective Factors in the Emergence of Arabic Grammar

Abstract: Ambiguity and blurring surround the origins of most of the sciences and theories, especially in humanities, and attracted by multiple personalities to whom primacy is attributed. The Arabic syntax is one of the branches of humanities, in general, and the Arab world in particular, which is surrounded by such ambiguity. Its status is attributed to multiple historical or scientific figures which had presence throughout history. In order to clarify the truth, as much energy and effort, we try in this historical introduction on the emergence of the Arabic syntax to question the texts that their owners referred to this personality or that, attributing to them the virtue of the development of this science, taking into account the historical follow-up starting from the

تاريخ تسليم البحث: 14 مارس 2018.

تاريخ قبول البحث: 24 ماي 2018.

العوامل الذاتية والموضوعية في نشأة النحو العربي، "يعود على بدء"..... مجلة نصل (الطاب

oldest text contained in that reference, divided into historical periods which are: 1- The second Hijri century. 2- The third Hijri century. 3- The fourth and seventh Hijri centuries. 4 - beyond the seventh century AH. 5. Modernists. Then we will examine the reasons for the objective and subjective development of Arabic syntax.

Keywords: Objectivity, subjectivity, syntax, emergence, factor, text, ambiguity, theories, rules

1-يعود أول ذكر لواضع النحو العربي والبيئة التي احتضنته إلى القرن الهجري الثاني، وإلى محمد بن سَلَام الجمحيّ المتوفى سنة (131هـ)، فقد نصَّ في كتابه (طبقات فحول الشعراء)¹ على البيئة التي ذرَّ فيها قرن النحو العربي، والظروف الموضوعية التي كانت وراء نشأته، فقال: "كان لأهل البصرة في العربية قَدْماً؛ وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية، وكانَ أَوَّلَ مَنْ اسْتَنَّ العربيةَ وفتح بابها، وانهج سبيلها، ووضع قياسها، أبو لأسود الدؤلي²... وإِنَّمَا قال ذلك حين اضطرب كلام العرب، فغلبت السليقة ولم تكن نحوية، فكان سَرَاة النَّاس يلحنون ووجوه الناس، فوضع باب الفاعل، والمفعول به، والمضاف، وحروف الجر..."³.

فالبينة الحاضرة لنشأة النحو العربي هي (البَصْرَة)، ذلك المِصْر الذي يولي النحو ولغات العرب وغريبها فضل عناية، وفيه بدأت سلائق النَّاس بالفساد ووجوه القَوْم يلحنون، وفي هذا المِصْر ظهر أَوَّل لحنٍ، فكان ذلك أحد العوامل التي حَدَّت بِأبي الأسود الدؤلي إلى وضع أوليات هذا العلم.

2- القرن الهجري الثالث:

في هذا القرن نقف على نصَّين يجمعان على نسبة وضع قواعد النحو العربي وتأسيس أصوله إلى أبي الأسود الدؤلي، وبذلك تلتقي نصوص القرن الهجري الثاني والثالث على تلك الشخصية، مع إشارة أحد النصَّين إلى أَنَّ أبا الأسود مسبوق إلى ذلك بالخليفة علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. يقول ابن قتيبة: "يُعَدُّ -يعني أبا الأسود- في الشعراء والتابعين والمحدثين... والنحويين؛ لأنَّه أَوَّل مَنْ عمل كتاباً في النحو بعد علي بن أبي طالب"⁴.

فابن قتيبة يكشف عن السمات التي تؤهِّل أبا الأسود لأن يكونَ صاحب الفضل في نشأة النحو العربي، فَلَهُ من شاعريته ما يجعله قادراً على فهم أساليب العرب في كلامها ويشهد له بالذائقة السليمة، وله من علم الحديث ما يجعله يميز الغثَّ من السمين، وله تابعيته ما يجعله في الثقات، وله من معرفته بالنحو ما يجعله سليم السليقة.

أما النصُّ الثاني فصاحبه محمد بن يزيد الثُمالي المعروف بـ (المبرد) المتوفى سنة (286 هـ)، وفيه تظهر أَوَّل إشارة إلى ابنة أبي الأسود الدؤلي واللحن الذي وقعت فيه أمام أبيها، فقد خلطت بين التعجُّب والسؤال، فحفز ذلك أباها أبا الأسود إلى أن يعلم علياً رضي الله عنه بما وقع من لحنٍ في السنة النَّاس، فقدم له عليٌّ أصولاً جعلت اللبنة الأولى لعمل أبي الأسود. ثمَّ

تلقّف عن أبي الأسود ذلك العلم تلميذه (عَنْبَسَة بن مَعْدَان المَهْرِي)، المعروف بـ (عَنْبَة الفيل). قال المبرّد: "السبب الذي بُني له أبواب النحو وعليه أُصِلَّت أصولُه أَنَّ ابنة أبي الأسود الدؤلي قالت: يا أبت ما أَشدُّ الحرِّ؟ قال: الحَصْبَاء بالرمضاء. قالت: إِنَّمَا تعجبت من شدّته. قال: أو قد لحن النَّاس، فأخبر بذلك عليّاً، رحمة الله عليه، فأعطاه أصولاً بنى منها، وعمل بعده عليها، فأخذه عن أبي الأسود عَنْبَسَة بن مَعْدَان المَهْرِي ..."⁵.

وإذا وقفنا عند نصوص من القرن الهجري الرابع نجد بعضها يتّفق مع النصوص السابقة ويختلف مع بعضها، وتبرز أسماء جديدة تنسب إليها أولية وضع النحو، أو تُشرك مع الشخصية الأولى، وأعني بها أبا الأسود الدؤلي. وبعض هذه النصوص يروي أصحابها الخبر من دون إسناد.

فالزّجّاجي (ت 337 هـ) يورد نصّين، أولهما يصحّح فيه بأن أبا الأسود الدؤلي هو صاحب الفكرة الأولى في ذلك، فقد هاله ما سمع من اللحن بين أبناء العرب بعيد اختلاطهم بالأعاجم، فطمحت نفسه إلى وضع كتاب يجمع أصول العربية، ولكن زياد بن معاوية ردّه عن ذلك حتّى لا يكون هذا الكتاب مدعاة إلى اعتماد الناس عليه وتركهم تلقّي اللغة الفصيحة من أفواه العرب، ولكن لما زاد فشوّ "اللحن وكثرو قُبُحْ، فأمره أن يفعل ما كان نهاه عنه، فوضع كتاباً فيه جُمَلُ⁶ العربية، ثم قال لهم: انحوا هذا النحو، أي: اقصدوه"⁷.

وروى خبراً آخر مسنداً إلى أبي الأسود الدؤلي وجعله آخذاً الأصول التي وضعها عن عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقال: "دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فرأيتَه مطرقاً مفكراً، فقلت: فيم تفكّر يا أمير المؤمنين؟ قال إِنِّي سمعت ببلدكم هذا لحناً فأردت أن أضع كتاباً في أصول العربية. فقلت: إن فعلت هذا أحييتنا وبقيت فينا هذه اللغة. ثم أتيتَه بعد ثلاث فألقى إليّ صحيفة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم. الكلمة: اسم، وفعل، وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمّى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمّى، والحرف: ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل ..."⁸. وقد عرفت الصحيفة المشار إليها بـ (التعليقة) أو (تعليقة أبي الأسود). واضح في النص السّابق الذي سردناه الوضّح، فعليّ رضي الله عنه، خليفة المسلمين آنذاك، يشغلُه ما هو أهم من شؤون الخلافة والدولة والرعيّة، ولا اعتقد أن سماع لحن في البصرة يمكن أن يشغل باله وفكره أكثر من تدبير شؤون الرعيّة. ثمّ إن المصطلحات التي أوردتها الخبر ليست مصطلحات تُخلَقُ بين عشية وضحاها، فما عُرِفَ به الاسم أو الفعل أو الحرف في النص السابق يكشف عن تطوّر مصطلحي واضح.

ونقف لدى كل من أبي الطيّب اللغوي (ت 351 هـ)، وأبي الفرج الأصفهاني (ت 356 هـ) على نسبة وضع النحو إلى أبي الأسود، لكنه أخذه عن عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه.

العوامل الذاتية والموضوعية في نهضة النحو العربي، "محو على بدء" _____ مجلة نصل الخطاب

وتظهر لدى السيرافي (ت 368 هـ) شخصيتان أُخريان غير أبي الأسود نسب إليهما وضع علم النحو، فقد روى اختلاف الناس في أول واضع للنحو، فمن قائل: إنه أبو الأسود، ومن قائل: نصر بن عاصم، وقال آخرون: عبد الرحمن بن هرمز⁹، فقد جعل هذا الأخير "أول من وضع العربية"¹⁰.

وتتلقانا في القرن السادس الهجري روايات ثلاث أوردها ابن الأنباري (ت 577 هـ)، هي:

1. أن علياً -رضي الله عنه- أول من وضع علم العربية، ثم تلقفه عنه أبو الأسود الدؤلي. وهذا هو الرأي الذي يُقرّه ابن الأنباري ويأخذ به.
2. أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، هو الذي أمر أبا الأسود بوضع رسوم النحو وتأصيل أصوله.
3. أن نصر بن عاصم أو عبد الرحمن بن هرمز هما أول من وضع النحو. وهذه الرواية

ضعيفة عنده، فقد أوردها مصدرة بقوله: (وزعم آخرون)، والزعم ظنٌ وتوهم. ثم إنه يرفضها ويرميها بعدم الصحة فيقول: "فأما زعم من زعم أن أول من وضع النحو عبد الرحمن أو نصر، فليس بصحيح؛ لأن عبد الرحمن أخذ عن أبي الأسود"¹¹.

وبدءاً من القرن السابع الهجري وما بعده يذهب العلماء إلى الأخذ بالرأي الذي يجعل أبا الأسود، مع حكاية بعضهم الخلاف في ذلك حيناً، أو تنكّب الاهتمام به حيناً آخر. ومن هؤلاء جلال الدين السيوطي (ت 911 هـ) الذي ساق الروايات كلها ولم يلتفت إلى ترجيح رواية منها على أختها، مع انتقاده إياها، أو مع القطع برجحان رواية على أخرى حيناً آخر¹².

أما المحدثون¹³ فكانوا يدورون في فلك تلك الآراء السابقة، فهم بين سارد للروايات المختلفة غير مرجح واحدة على أخرى، وبين مقرّ بأثر الدؤلي في ذلك، ورافض ذلك مضيف أسماء جديدة أخرى ورد بعضها في روايات المتقديمين، كنصر بن عاصم، وعبد الرحمن بن هرمز، وبعضها أضاف بعضهم، ومنهم عبد الله بن إسحاق، والخليل، وسيبويه. وهي اتجاهات في التأريخ لنشأة النحو عمدتها الروايات المتعددة التي مررنا عليها، وفهم خاص لمفهوم النحو¹⁴.

أسباب وضع النحو

أشرنا في الصفحات السابقة إلى أن الغموض يلفّ الواضع الأوّل للنحو، فوقف به بعضهم عند أبي الأسود الدؤلي، وارتفع به آخرون إلى الخلفية علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وانحدر به فريق ثالث إلى تلاميذ أبي الأسود الدؤلي أمثال نصر بن عاصم الليثي، وعبد الرحمن بن هرمز، وأضرأ بهما.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأسباب التي دفعت إلى وضع أصول هذا العلم ورسم قواعده وأصوله، فتعددت الأقاويل ورويت القصص والتفسيرات فكانت أشبه بالأساطير والخرافات

والرجم بالغيب. فمن جاعلٍ حادثةً فرديةً وقعت بين أبي الأسود الدؤلي وابنته حافزاً رئيساً إلى وضع النحو، ذلك أنها قالت لأبيها: ما أشدُّ الحر؟ فظنها تستفهم فأجابها على سؤالها، ولكنها أبانت لأبيها أنها تتعجب ولا تستفهم، فيها له ذلك، فاتجه إلى رسم أصول النحو. ومن جاعلٍ سماع أبي الأسود الدؤلي أحد الناس يقرأ قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: 3] بكسر لام (رسوله) عاطفاً إيّاها على لفظ الجلالة (الله) فدفع به هذا اللحن إلى البدء بوضع قواعد النحو¹⁵، وهذه أقاويل وروايات تنسب وضع العلوم إلى المصادفات المحض، والعلوم لا يصحُّ أن يُرَكَّنَ فيها إلى مثل ذلك، إذ لا بدَّ من وجود جملة من المعطيات المفضية إلى جملة من النتائج، أما التفسير القائم على القول بـ (الطفرة) في نشأة العلوم أيّاً كان ميدانها، فأمر لا يستسيغه التفكير العلمي المستقيم؛ ولذلك لا بدَّ من البحث الموضوعي في تفسير نشأة أي علم من العلوم، ووضع الأمور في حاقِّ نصابها، والكشف عن المقدمات وصولاً إلى النتائج، ليكون في ذلك احترام للعقل فلا يُتهم بالسذاجة والطفولية في تفسير الظواهر.

لقد كان القرآن الكريم منبعاً ثراً لكل الدراسات اللغوية وغير اللغوية، فكان قُطْبُ الرّحى بالنسبة إلى دراسة علم الأصوات من خلال البحث في القوانين الصوتية المرعية التي تجعل قارئه يخرج أصواته المخرج الصحيح. وفي رحاب القرآن نشأ علم التفسير؛ بدءاً من معرفة غريب ألفاظه المحتاجة إلى شرح وبيان، وصولاً إلى تأويل آياته الكريمات وبين يديه نشأ علم النحو الذي يعمُّ مفهومه الظواهر اللغوية كلها من أصوات، فأبنية ألفاظ، فوظائفها ضمن التركيب، فعلاقاتها السياقية النظميّة مع العناصر اللغوية الأخرى، فكان اللحنُ في القراءات من جهة، ثمَّ في المستويات اللغوية المنتشرة آنذاك أحد الأسباب المهمة في نشأة علم النحو بمفهومه العام.

وقد كان للمجتمع العربي في القرنين الأولين مستويات لغوية متعدّدة لكل منها خصائصه، فلغة الشعر والخطابة والوعظ هي اللغة المثالية، ويمثّلها الشعر الجاهليُّ بمعلقاته والقرآن الكريم، وهذه اللغة كانت معروفة في جنبات الجزيرة العربية كلها، سائد فيها، وهي لغة مضبوطة معربة. أما المستوى اللغوي الثاني فهو لغة البدو، وهي لغة تقترب من المستوى اللغوي الأول بضبطها وإعرابها، لكنها تفارقه في تميّزها بخصائص لَهْجِيَّة تعكس خصوصيّة الجماعة اللغوية (القبيلة) التي تتكلّمها، فلقبيلة تميّز مثلاً خصائصها اللهجيّة في ظواهر لغوية صوتية، وصرفية، ونحوية، وتركيبية، ولقريش وهذيل وسُعد وغيرها خصائصها التي تتفرد بها كل منها. وتتوزع مواطن هذا المستوى اللغوي في مناطق نجد، والحجاز، وتهامة، وتتمثّل هذه اللغة فيما ورد عن الأعراب الفصحاء من نصوص لغوية نادرة، وهي لغة غير مدوّنة "كانت في نظر..."

العوامل الذاتية والموضوعية في نهضة النحو العربي، "محوذ على بدء" _____ مجلة نصل الطلاب

ولهُؤلاء الأعراب خصائص، ولا سيما في البيان، "فقد كانوا أحقَّ به وأهله ... فلكلّامهم السبّك الحسن، والديباجة الكريمة، والرّونق العجيب، والماء الجمّ، والطّابع الفصح. ولهم أصناف البلاغة قصيداً ورجزاً، وخطباً ومنثوراً"¹⁶.

وفي موازاة المستوى اللغوي للأعراب البداءة مستوى لغوي آخر هو لغة المدن أو الحواضر، لغة أولئك الذين نزلوا "بلاد الرّيف، واستوطنوا المدن والقرى العربية وغيرها مما ينتهي إلى العرب"¹⁷، وهم عربٌ وإن لم يكونوا فصحاء¹⁸. قال الجاحظ: "ولأهل المدن ألسنة ذلقة، وألفظ حسنة، وعبرة جيدة. واللحن في عوامهم فاشٍ، وعلى من لم ينظر في النحو غالبٌ". ويمثّل هذه الحواضر مكّة المكرّمة، والطّائف، والمدينة، والجزيرة، وغيرها.

ولهذا المستوى اللغوي الثالث خصائص تفرّقه من المستوى اللغوي الأول، أعني اللغة المثالية، لغة الشعر والخطابة والوعظ، أو تبعده عنها؛ ذلك أنّ هذه الحواضر كانت مقصداً لجماعات لها سمّتها اللغوية، وخصائصها اللّهجية، كالفرس والأحباش، فدخلت لغتها عادات لغوية لا تقبلها الذائقة اللغوية العربية، وفشا اللحن في عوامهم، وتخفّف سكانها الأصليون من خصائص اللغة المعربة، حتّى غلب عليهم ذلك. قال الجاحظ واصفاً ما أصاب لغة أهل المدينة وما دخلها من عادات لغوية مستهجنة لديهم: "ولأهل المدينة ألسنٌ ذلقة، وألفاظ حسنة، وعبرة جيّدة. واللحن في عوامهم فاشٍ، وعلى من لم ينظر في النحو غالب"¹⁹.

وقد بيّن الجاحظ في نصوص أخرى أثر الإقامة في الحواضر في الفساد اللغوي ونقص البيان، وكثرة اللحن، فقال: "ومتى وجد النحويون أعرابياً يفهم هذا -يعني قولهم: ذهبْتُ إلى أبو زيد، ورأيتُ أبي عمرو- وأشباهه بهرّجوه²⁰ ولم يسمعوا منه؛ لأنّ ذلك يدلُّ على طول إقامته في الدار التي تُفسدُ اللغة وتُنقص اللغة؛ لأنّ تلك اللغة إنما انقادت واستوت واطردت وتكاملت، بالخصال التي اجتمعت لها في تلك الجزيرة وفي تلك الجزيرة، ولَفَقْدُ الخطاء من جميع الأمم"²¹.

ثمّ روى خبراً آخر يكشف بجلاء ما حصل لـ (زَيْد بن كَثُوة) من فساد في لغته بين زمنيّ قدومه إلى البصرة ووفاته، فقال: "ولقد كان بين زيد بن كَثُوة يوم قدم علينا البصرة، وبينه يوم مات بؤنٌ بعيد. على أنه قد كان وضع منزله في آخر موضع الفصاحة وأوّل موضع العجّمة"²². وأورد نصّاً ثالثاً فقال: "وزعم أبو العاصي أنّه لم يرَ قروياً²³ قطّ لا يلحن في حديثه، وفيما يجري بينه وبين النَّاس... وقد روى أصحابنا أنّ رجلاً من البلديّين قال لأعرابي: كيف أهلك؟ قالها بكسر اللام. قال الأعرابي: صلباً؛ لأنّه أجابه على فهمه، ولم يعلم أنّه أراد المسألة عن أهله وعياله"²⁴.

لقد تسرّب اللحن أوّل الأمر إلى لغة التّواصل المجتمعي على نحو ما بيّنه النصّان الأخيران، حتّى إنه عمّ وطمّ ليشمل المستويات اللغوية كافة، فما سلم منه إلا لغة الأعراب

المتبدين. وفيما يأتي سَرْدُ متسلسل لمظاهر من اللحن في المستويات اللغوية كافة بدءاً من القراءات القرآنية، وانتهاء باللغة المحكية.

1- اللّحن في القراءات القرآنية: (سمع النبي - صلى الله عليه وسلم رجلاً يلحن فقال: أرشدوا أحاكم فقد ضلّ)²⁵. وروي أنّ أبا الأسود سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: 3] بكسر اللام من كلمة (رسوله)، فقال: أو قد برئ الله من رسوله فإن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه²⁶ ومن ذلك أنّ الحجاج سأل يحيى بن يعمر: هل يلحن في بعض نطقه فأجابه يحيى مصارحاً إياه أنه يلحن في حرف القرآن؛ ذلك أنه قرأ قول الله، عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ ... أَحِبُّوا﴾ بضم (أحب) وصواب قراءتها بالنصب، فقال له: والله لا تساكني هذه البلاد أبداً، فنفاه.

2- اللّحن في اللغة المثالية: روي أنّ الوليد بن عبد الملك قال: "يا أهل المدينة"، ببناء المنادى المضاف على الضم. ومن ذلك أنّ أبا موسى الأشعري والي عمر بن الخطاب كتب إلى عمر كتاباً فيه بعض اللّحن، فكتب عمر إلى الوالي قائلاً له: "أن قنع كاتبك سوطاً"²⁷.

3- اللّحن في اللغة المحكية: من ذلك أنّ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه مرّ على صبية يترامون السهام، فقال: أحدهم: أسبْتُ، وهو يريد: أصبت الهدف. فقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: لخطؤكما أشدّ من خطئكما في رميكما.

وروي عن الوليد بن عبد الملك أنّه قال لغلامه: "يا غلام ردّ الفرسان الصادان عن الميدان". ومن ذلك أيضاً القصّة المروية عن أبي الأسود الدؤلي وابنته، وقد أشرنا إليها غير مرّة. ولا يعني هذا أنّ اللحن إنّما بدأ بعد الإسلام فحسب، لكنه كان نادراً فيما قبل الإسلام، وبقي على قلّته وندرته على امتداد القرن الهجري الأوّل تقريباً؛ ذلك أنّ القوم كانوا ينفرون من اللّحن، ويعدّونه مَقْتَلًا من مقاتل المروءة. ونشير ههنا إلى أن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان يفاخر بفصاحته ونقاء لغته، فقد روي عنه قوله: "أنا أفصح العرب، بيد²⁸ أني من قريش، واسترضعت في بني سعد، فأتى لي اللحن". والنبي - صلى الله عليه وسلم - قرشي من حاضرة مكّة، ولكن أرسل إلى بادية بني سعد، وهي قبيلة معروفة بفصاحتها. وهذا مسلك من المسالك التي كان أهل الحواضر يفعلونه بأولادهم، إذا يبعثونهم إلى البوادي لينشؤوا ثمّة نشأة جسميّة صحيحة، ونشأة لغوية نقيّة كذلك. يوازي هذا المسلك أن يقوم أهل الحضرة بإرسال أبنائهم إلى مراكز التعليم المعروفة آنذاك وحتىّ عصور متأخرة ب (الكتاتيب)، ليتعلّموا فيها، على غرار ما فُعل بالشاعر (عدي بن زيد العبادي)، أو يقومون باجتلاب المعلمين إليهم إذا كانوا من ذوي الشأن والسيادة، على نحو ما فعل هارون الرشيد، رضي الله عنه بابنيه الأمين والمأمون، يوم استحضر لهما الأصمعيّ يروّيهما آداب العرب.

العوامل الذاتية والموضوعية في نشأة النحو العربي، "محمد علي بدء" _____ مجلة نصل الطلاب

وإذا رحنا نتفحص أنواع اللحن ونتقرّأها بغية جمع النظير إلى نظيره، وفي سبيل ضم الصنف إلى صنفه ليكون ذلك أسلم في الدرس، يمكن لنا أن نقف على أنواع، منها:

1- لحن في التركيب اللغوي: ومثاله أن الجاحظ سأل خادماً: "في أيّ صناعة أُسْلِمَ هذا الغلام؟ فأجابه الخادم: في أصحابِ سِنْدِ نعالٍ"، ومراده: (في أصحاب النعال السندية)، فلم يدرك العلاقة بين النعت والمنعوت فاختل نسق التركيب. ومثله أيضاً اختلال المطابقة بين التذكير والتأنيث، فقد سمع أحدهم يقول: "هذه عصاتي"، فأنها بالتاء، والصواب: (عصاي).
2- اللحن البنيوي: ونعني به الخطأ في حركة بنية الكلمة، أو التبديل في بنيتها الصوتية، أو في وزنها. ومثال الأول أن (نبطياً) سئل عما يستفيدة من حمارته، فقال: (أركمها وتلد لي)، ففتح لام (تلد) وصوابها الكسر (تلد). ومثال الثاني إبدال الصاد سيناً في قول أحد الرماة فيما رويناه منذ قليل، إذ قال: (أسبت) بدلاً من (أصببت). ومثال الثالث قولهم: (رعد وبرق)، والصواب: (أرعد وأبرق).

3- لحن الإعراب: وقد عرضنا لنماذج منه، ولا سيما في القراءات القرآنية.
إنّ ما سبق لنا أنّ قدّمناه وعرضناه له بالتفصيل حيناً، والإيجاز أحياناً، يجعل في مقدّرتنا أن نجمل الأسباب الموضوعية لنشأة النحو العربي، فننتكّب بذلك سرّد ما هو أقرب إلى الخرافات والتخرّصات في ذلك، ونبتعد عن تأويل نشأة العلوم تأويلاً لا يمتُّ إلى البحث العلمي والاستقراء الدقيق بصلة.

والراجع لديّ -ومن خلال الحقائق التي فرشتها فيما مضى من الصفحات- أن وراء نشأة النحو أسباباً ثلاثة، هي:

1- السبب الديني: يمثّله ما تمتّعت به لغتنا العربية من قداسة مرتبطة بقداسة النصّ القرآني الذي نزل بها، فكان ذلك سبباً في نشأة علوم شتى تدور في فلكه، من لغة، ونحو، وتفسير، وبلاغة، ومعرب، ودخيل، وإعراب. وكان من نتائج هذه القداسة التي صبغت لغتنا تأيها على محاولات طمسها ووأدها على كثرة هذه المحاولات داخلياً وخارجياً.

2- السبب اللغوي: ويُمثّله ما يسعّ (التداخل اللغوي) في حواضر العالم العربي آنذاك، فثمة لغات غير العربية تزاحم العربية، ومنها: اللغة الفارسية، والسريانية، وغيرهما. يدلُّ على ذلك بوضوح انتشار بعض الألفاظ من هذه اللغة أو تلك. إلى جانب ذلك وجد ما يسعّ أيضاً ب (التداخل اللّهيّ) ما أدّى إلى ظهور لغة هجينة بعيدة كل البعد عن أصالة هذه اللغة أو تلك.

3- السبب الاجتماعي: ويراد به البنية البشرية للمجتمع العربي آنذاك، الذي ابتعد به كل البعد عن الاحتفاظ بالنقاء اللغوي وسلامة السليقة. فأفضى ذلك إلى اختلاط العرب

بغيرهم من الأعراق البشرية، كالأحباش، واليمنيين، والأنباط، والفرس، والهنود والسرّيان، وغيرهم في حواضر العالم العربي آنذاك من قلة إلى المدينة، إلى العراق، إلى بلاد الشام. يضاف إلى ذلك سببان آخران أوردهما د. شوقي ضيف في كتابه (المدارس النحوية)، وهما²⁹:

- 1- السَّبب القومي: ويقصد به اعتزاز العربي بلغته اعتزازاً شديداً جعله يخشى فسادها يوم اختلط بغيره من الأقوام، ويحرص على التأصيل لها ووضع قواعدها.
- 2- التطور العقلي: يراد به رقي العقل العربي ونمو طاقاته الذهنية دفعه إلى رصد الظواهر اللغوية، ووضع الأصول النحوية المطردة.

فهذه الأسباب مجتمعة جعلت القائمين على الأمور إلى البحث عن حلٍّ جذري للمشكلة اللغوية المتفاقمة آنذاك، وإيجاد لغة مشتركة توجّد المجتمع وتشدُّ بعضه إلى بعض، عبر قواعد ميسرة تضمن لأصحابها التواصل اليومي، فكانت البَصْرَة أفضل مكان تتمثّل فيها الدوافع السابقة كلّها، "فهي مبنية في نقطة التقاء الطرق الصحراوية بالطرق البرية، ..."، وهي "مدينة تضمّ 300 ألف نسمة من أجناس مختلفة"، ففيها من المقاتلة العرب ثمانون ألفاً، ومن عيالهم مئة وعشرون ألفاً، ومن الموالي مئة ألف. وكان العلاج في مستويين³⁰:

- 1- علاج سريع: عكسه ما قام به أبو الأسود من نقط المصحف.
- 2- علاج مديد: قائم على دراسة الظواهر اللغوية، وضَمّ اللَّفْق إلى لفقه، والشبيه إلى شبيهه، ليصبّ ذلك في قواعد كليّة.

وهذان العلاجان يحتاجان إلى شخصية واسعة الأفق، سامقة الوعي، جيّدة الحفظ، غزيرة العلم باللغة، غنيّة الثقافة، سديدة الرأي، وهذه خصائص اجتمعت في شخص أبي الأسود الدؤلي، ما يدفع إلى ترجيح بل الجزم بأنه الرائد الذي فتح مغاليق الدراسات اللغوية، وأنهج سبيلها، ولا سيّما أنه قد قام بنقط المصحف، وهي خطوة مهمة على طريق تناول ظاهري التصرّف الإعرابي، ووضع الأصول النحوية ورسم رسومها، ثمّ الانتقال إلى دراسة الظاهرة النحوية وتحليلها تحليلاً مؤيداً بشواهد من النص القرآني.

وبعضدّ هذا التّرجيح أن أبا الأسود خلّف لنا أوّل مختصر نحوي سمّاه (التعليقة)³¹، وواضح من تسميته أنه يتضمّن كلاماً مُجملاً في ظواهر لغوية تهديّ إليها نتيجة نقط المصحف. أما ما نسب إلى نصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هرمز من وضع النحو العربي، فأمر مدفوع بتأخّر ظهور اسميهما من جهة، وتفرد السّيرافي (ت 368 هـ) في ذكرهما، فلم يظهر في نصّ قبل السّيرافي، وتفرد السّيرافي في ذكرهما يجعل بذور الشك لا تبلغ شجرة اليقين.

مراجع البحث وإحالاته:

- 1- كتاب ((طبقات فحول الشعراء)) أوّل كتاب صُفّي فيه الشعراء في طبقات، وطبع الكتاب غير مرّة، وآخرها وأفضلها الطبعة التي حقّقها العلامة محمود شاكر (ت1997م)، وصدر عن دار المدني في جدّة، وقُدّم له بما سمّاه (برنامج طبقات فحول الشعراء)، وفيه لخصّ منهجه في التحقيق، وعرض للبعث الذي أصاب بعض كتب التراث، ومنها كتاب ((طبقات فحول الشعراء)).
- 2- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي (ت 231 هـ)، شرح: محمود شاكر، مطبعة المدني، ج: 1، ص: 12.
- 3- المصدر السابق نفسه 1: 12.
- 4- الشعر والشعراء: 280، و المعارف: ابن قتيبة (ت 276 هـ) تحقيق د. ثروة عكاشة، سلسلة ذخائر العرب(42)، دار المعارف، القاهرة، ط4، ص: 434.
- 5- الفاضل، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت 285 هـ)، تحقيق عبد العزيز الميمني الراجكوتي، نسخة مصورة، بيروت، د. ت، ص: 5.
- 6- لا يراد بهذا المصطلح جمع (الجملة)، وإنما يراد منه المُجْمَل من القواعد.
- 7- أمالي الزجاجي: أبو القاسم الزجاجي (ت340 هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، ط1، المؤسسة العربية الحديثة، صص: 238 و 239.
- 8- نفسه، صص: 238 و 239.
- 9- أخبار النحويين: أبو سعيد الحسن السيرافي (ت364 هـ)، حققه طه الزيني وزميله، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1955م. ص: 19.
- 10- أخبار النحويين: 19.
- 11- نزهة الألباء: ابن الأنباري (ت 577 هـ)، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، عمان، ط3، 1985م. ص: 21.
- 12- المزهري في علوم اللغة وأنوعها: العلامة عبد الرحمن جلال الدين السيوطي (ت 911 هـ)، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وزملائه، دار إحياء الكتب العربية. ج: 2، ص: 397 و 398. وانظر: خزانة الأدب: عبد القادر البغدادي (ت1093 هـ)، حققها عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة. ج 1 ص 136-138.
- 13- تاريخ النحو العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري: د. علي أبو المكارم، بلا تاريخ، ص: 38، والمدارس النحوية: د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، نسخة مصورة، مطبعة الجامعة، حمص، د. ت، ص: 11 وما بعدها، والفراء ومذهبه في النحو واللغة: د. أحمد مكي الأنصاري، المجلس الأعلى، القاهرة، 1962م، ص: 362.
- 14- نفسه: 38.
- 15- انظر الروايات المختلفة في ذلك في: المقدّمة التاريخية السابقة، والمدارس النحوية 14-16.
- 16- كتاب الأعرابيات: خليل مردم بك (ت1959م)، وقف على طبعه وشرح حواشيه عدنان مردم بك وأحمد الجندي، راجعه مروان البواب، ط. مجمع اللغة العربية، ط2، 2001، دمشق، ص35.
- 17- المصدر السابق نفسه، ص33.

- 18- المصدر السابق نفسه، ص33. وانظر: البيان والتبيين: أبو عمر والجاحظ (ت256 هـ)، حققه عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي، القاهرة، ج: 1، ص: 145.
- 19- البيان والتبيين: أبو عمر والجاحظ (ت256 هـ)، حققه عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي، القاهرة، ج: 1، ص: 146.
- 20- يهْرُجوه: التَّهْرُجَةُ: العدول بالشيء عن الجادة القاصدة إلى غيره، والمراد بذلك أنهم يهملونه.
- 21- البيان والتبيين 1: 163.
- 22- البيان والتبيين 1: 163.
- 23- المراد بالقروي ساكن الحواضر لا البوادي.
- 24- البيان والتبيين 1: 163.
- 25- انظر: الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت671 هـ) صححه: أحمد عبد العليم البردوني، بلا دار نشر ولا تاريخ، ج: 1، ص: 24، و البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي (ت745 هـ)، مطابع السعادة، الرياض، ج: 2، ص: 246، فقد اختُلف في الشخصية التي معها القصة، فمن قائل هو عمر بن الخطاب، ومن قائل أنه أبو الأسود نفسه. المزهري 2: 396.
- 26- الخصائص: عثمان بن جني (ت392 هـ)، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، د. ت، ج: 1، ص: 8، والمزهري 2: 396.
- 27- الخصائص 1: 8، والمزهري 2: 397.
- 28- تعني ((بيد)) ههنا ((إضافة إلى أنني من قريش))، وليس بمعنى ((لَا)).
- 29- المدارس النحوية: 12.
- 30- تاريخ النحو العربي: د. علي أبو المكارم، ص61.
- 31- أوردها الزجاجي في أماليه، وحقَّقها ونشرها د. محمد خير البقاعي في مجلة العرب، ج7 و8، السنة 42، 2007م/ 1428هـ.